

سلسلة أعمال القلوب : Dossier du mois :

اليقين

Partie 8 :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:
فإن حديثنا في هذه المقالة عن مقام من أعلى مقامات الدين، وخلة من أعظم خلال العارفين، إنه اليقين.. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن منزلة اليقين: "هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفين، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين وُلد بينهما حصول الإمامة في الدين. قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة:24].
وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) [الذاريات:20].
وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ) [البقرة:4، 5].
وأخبر عن أهل النار أنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: (وَأَذًا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتَمَّ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظِرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبِقِينَ) [الجاثية:32].
فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قُطب هذا الشأن الذي عليه مداره". اهـ.

التوكل ثمرة اليقين:
و"التوكل ثمرة ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به؛ قال تعالى: (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) [النمل:79]. فالحق هو اليقين.
وقالت رسول الله: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا) [إبراهيم:12]. ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلاً نوراً وإشراقاً، وانففى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم، فامتلاً محبةً لله وخوفاً منه، ورضاً به وشكراً له، وتوكللاً عليه، وإنابةً إليه؛ فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل". [أخرجه أحمد في الزهد، وحسنه الألباني].
وقال صلى الله عليه وسلم: "نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل". [رواه ابن أبي الدنيا، وحسنه الألباني].

الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل ربه اليقين:
فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا. ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحبتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثارنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا". [أخرجه الترمذي وحسنه الألباني].

رجحان العمل وحصول الرضا باليقين:
وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: "يا حبيذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يعيون سهر الحمقى وصيامهم؟! ولمنقال ذرة من بر، من صاحب تقوى ويقين، أفضل وأرجح وأعظم، من أمثال الجبال عبادة من المغترين". [أخرجه أحمد].
وصح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "إن الروح والفرج في اليقين والرضا، وإن الغم والحزن من الشك والسخط".
وكان عطاء الخراساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول: "اللهم هب لنا يقينا بك حتى تهون علينا مصيبات الدنيا، وحتى نعلم أنه لا يصيبنا إلا ما كتب علينا، ولا يأتينا من هذا الرزق إلا ما قسمت لنا به".
وقال بلال بن سعد: "عباد الرحمن، اعلموا أنكم تعملون في أيام فصار لأيام طوال، في دار زوال لدار مقام، ودار حزن ونصب لدار نعيم وخلد، ومن لم يعمل على اليقين فلا يفتخر". أي أن الأفعال تدل على ضعف اليقين.
وقال رحمه الله: "كانا قوم لا يعقلون، وكانا قوم لا يوقنون".
وقال رحمه الله: "عباد الرحمن، أما ما وكلكم الله به فتضيعونه، وأما ما تكفل لكم به فتطلبونه، ما هكذا بعث الله عباده الموقنين، أدوو عقول في طلب الدنيا، وبله عما خلقتهم له؛ فكا ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعة الله

عز وجل، فكذلك أشفقوا من عذاب الله بما تنتهكون من معاصي الله عز وجل".
واعلم - رعاك الله - أنه على قدر قربك من التقوى تدرك من اليقين، ولا يسكن اليقين قلباً فيه سكون إلى غير الله تعالى.

أمثلة عطرة على علو الهمة في اليقين:
إن من يقرب صفحات التاريخ يجده يزخر بأمثلة عطرة على علو الهمة في اليقين والثقة بالله، ومنها:

خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام كان خلقه اليقين:
فكل موافقه عليه السلام تدل علي ذلك، ففي حاجته لقومه كان خلقه اليقين: (وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتَجَاوَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَنْشَاءَ رَبِّيَ شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام:80-82]. نعم، كيف يخاف من عنده هذا اليقين؟!.

ويتجلى يقينه وتوكله وثقته بربه حينما ألقوه في النار، وجاءه جبريل يقول: ألك حاجة؟ فيجيبه: أما إليك فلا، ثم يردد نشيده العلوي: "حسبنا الله ونعم الوكيل".
إن كل موقف من مواقف الخليل ملؤه اليقين.. إلقاء طفله الرضيع وزوجه في البرية، همه بذبح ولده.. فصولات ربي وسلامه عليه.

الرسول صلى الله عليه وسلم.. القمة في علو الهمة:
ومن كرسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما يشتد الكرب يبدو يقينه مثلاً يحتذى، ولا كرب أشد من ساعة الهجرة: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هَمَّ فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّغْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة:40]. حين يقول له الصديق: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، والرسول صلى الله عليه وسلم يهدئ من روعه: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟".

ثم انظر إلى يقينه بربه بعد أن جرى له ما يشيب لذكره الولدان في رحلته إلى الطائف، وهو يقول لملك الجبال الذي عرض عليه الانتقام من المشركين: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً".

صيحة عمير بن الحمام.. منارة من منارات اليقين:
فإنه لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض". قال: بخ. بخ. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما حملك على قولك: بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال صلى الله عليه وسلم: "فإنك من أهلها". فأخرج تمرات كن في قرنه (جيبه) فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حبيت حتى أكل تمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه ثم قاتلهم حتى قتل".
ولله در القائل:

يا أمتي وأقول اليوم في ثقة.. .. إنني اليقين فلا شيء يزعرعني
إني العقيدة والإقدام فيصلها.. .. وليس غير نداء الله يسحرنني
أذود عنه وفيها عل خاتمتي.. .. تكون في ظلها يوماً فتقبلني
فالليل يعقبه فجر ومثذنة.. .. والله أكبر نيراس على الزمن
الهلول في خطوي والنور في دربي.. .. وأظل أسمع صوت الحق في أذني
رزقنا الله يقينا لا يتزحزح، وقره عين لا تنفد... اللهم آمين.
للاستزادة:

(نضرة النعيم / جزء 8)
(صلاح الأمة / جزء 5)